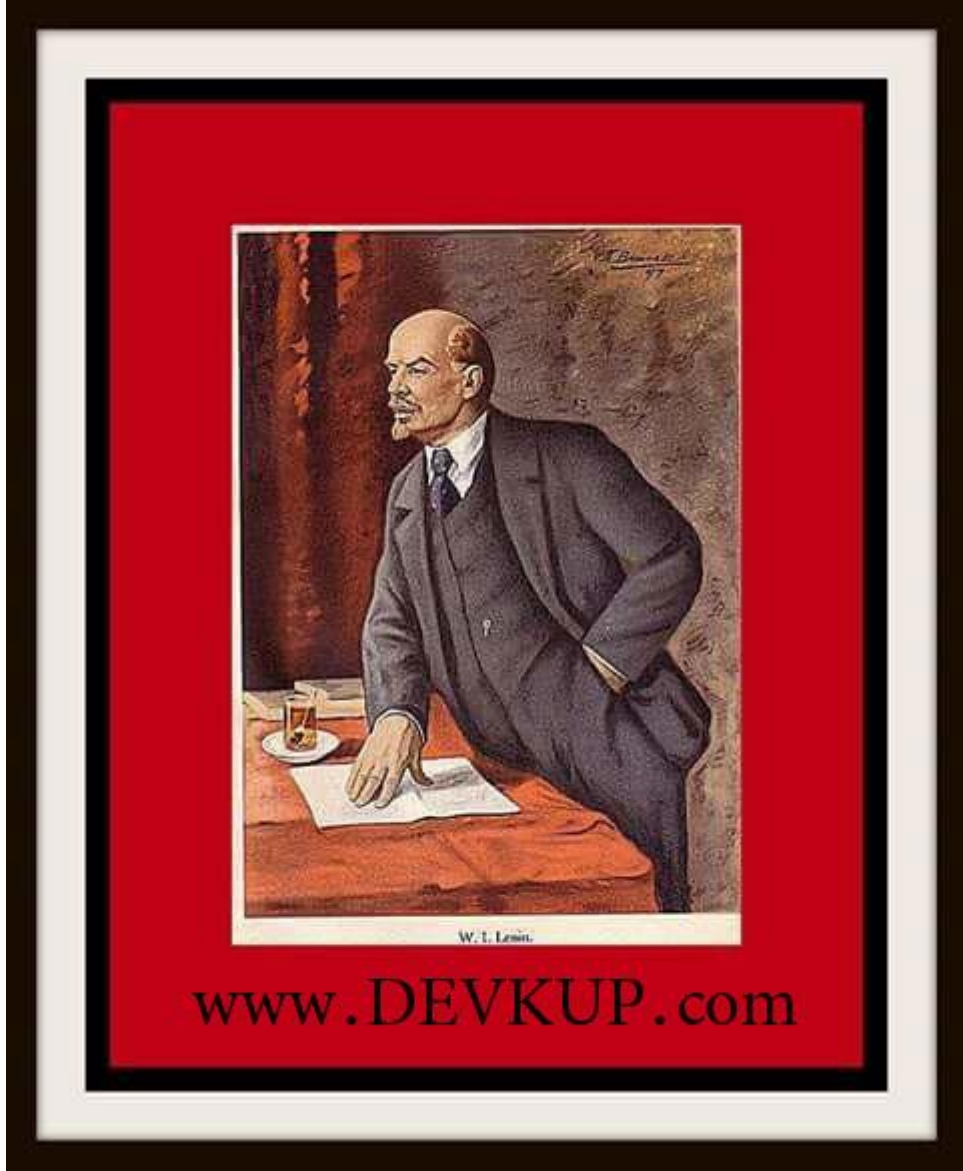


بعض خصائص تطور الماركسية التاريخي



أعداد وتنسيق نسخة الـ PDF مكتبة DEVKUP الإلكترونية

جميع الحقوق محفوظة @2018

فلاديمير لينين |

كان انجلس يقول في معرض حديثه عن نفسه وعن صديقه الشهير ان مذهبهما ليس بمذهب جامد، انما هو مرشد للعمل، ان هذه الصيغة الكلاسيكية تبين بقوة رائعة وبصوره اخاذة هذا المظهر من الماركسية الذي يغيب عن البال في كثير من الاحيان. واذ يغيب هذا المظهر عن بالنا، نجعل من الماركسية شيئاً وحيد الطرف، عديم الشكل، شيئاً جامداً لا حياة فيه، وتفرغ الماركسية من روحها الحية، وننسف اسسها النظرية الجوهرية – نعني الديالكتيك، أي مذهب التطور التاريخي المتعدد الاشكال والحافل بالتناقضات، ونضعف صلتها بقضايا العصر العملية والدقيقة، التي من شأنها ان تتغير لدى كل منعطف جديد في التاريخ. والحال، بين الذين تهمهم مصائر الماركسية في روسيا، نجد في اغلب الاحيان، وفي ايماننا هذه على وجه الضبط، اناساً غاب عن بالهم هذا المظهر من الماركسية بالضببط. مع ان الجميع يدركون ان روسيا قد مرت في السنوات الأخيرة، بتحويلات حاده، كانت تعدل الوضع بسرعه خارقه ومدهشة حقاً، الوضع الاجتماعي والسياسي الذي يحدد شروط العمل بصوره مباشره فوريه، وبالتالي، مهمات هذا العمل. واني لا اقصد، بالطبع، المهمات العامه والجوهرية التي لا تتغير في منعطفات التاريخ، حين لا تتغير النسبة الأساسية بين قوى الطبقات. وبديهي تماماً ان هذا الاتجاه العام لتطور روسيا الاقتصادي (وليس الاقتصادي فحسب)، وكذلك النسبة الأساسية بين قوى مختلف طبقات المجتمع الروسي، لم يتغيرا، فعلاً، خلال السنوات الست الاخيرة مثلاً.

ولكن مهمات العمل المباشر والفوري تغيرت بصوره سريعة جدا خلال هذه الحقبة من الزمن، تبعاً لتغيرات الوضع الاقتصادي والسياسي الملموس، ومذ ذاك، كان لابد لشتى مظاهر الماركسية، التي هي مذهب حي، من تبرز الى المرتبة الاولى.

ولأجل توضيح هذه الفكرة لنراه ايه تغيرات طرأت على الوضع الاجتماعي والسياسي الملموس في هذه السنوات الست الأخيرة. اننا نلاحظ فوراً ان هذه الحقبة من الزمن تنقسم الى مرحلتين كل مرحلة من ثلاث سنوات: المرحلة الاولى تنتهي تقريباً في صيف 1907، والمرحلة الثانية في صيف 1910. ان مرحلة السنوات الثلاث الاولى تتصف من الناحية النظرية الصرف، بتحول سريع في ميزات النظام السياسي الأساسية في روسيا.

وهذا التحول جرى بوتيرة غير منتظمة الى حد بعيد، اذ كان مدى الذبذبات قوياً جداً في الاتجاهين. اما الاساس الاجتماعي والاقتصادي لهذه التغيرات في ((البناء الفوقي))، فقد كان العمل الجماهيري، السافر والمهييب، الذي قامت به جميع طبقات المجتمع الروسي في شتى الميادين (في الدوما وخارج الدوما، في الصحافة، في النقابات، في الاجتماعات، الخ)، وبشكل نادر ما نرى مثيلاً له في التاريخ.

وبالعكس، تتصف المرحلة الثانية من السنوات الثلاث – ونكرر قولنا اننا نقتصر هذه المرة على وجهه نظر ((علمية اجتماعية)) نظرية صرف – بتطور بطيء، الى حد انه يكاد يعادل الركود. فليس ثمة أي تحول محسوس الى هذا الحد او ذاك في النظام الساسي. ولم تقم الطبقات بأي عمل او تقريباً بأي عمل، صريح ومتعدد الوجوه، في معظم ((الميادين)) التي جرى فيها هذا العمل في المرحلة السابقة.

اما وجه الشبه بين هاتين المرحلتين فهو ان تطور روسيا ظل في كليهما، التطور السابق، الرأسمالي. فإنه لم يقض على التناقض بين هذا التطور الاقتصادي وبين وجود عده من المؤسسات القطاعية التي تتصف بطابع القرون الوسطى، فقط ظل هذا التناقض قائماً، وبدلاً من ان يزول، تفاقم بالعكس من جراء تسرب عدد من العناصر البرجوازية جزئياً في هذه المؤسسات او تلك.

واما وجه الفرق بين هاتين المرحلتين، فهو انه قد برزت في الاولى في مقدمه العمل التاريخي، مساله معرفه الى أي نتائج ستؤدي التحويلات السريعة المتفاوتة المذكورة اعلاه. ان جوهر هذه التحويلات، كان لابد ان يكون جوهرأ برجوازيأ، بسبب الطابع الرأسمالي الذي اتصف به تطور روسيا. ولكن ثمة برجوازية وبرجوازية.

فأن البرجوازية المتوسطة والكبيرة، التي كانت تتمسك بليبيرالية معتدلة الى هذا الحد او ذاك، كانت تخشى التحويلات السريعة، بحكم وضعها الطبقي بالذات وتجهدها نفسها للحفاظ على البقايا الهامة من المؤسسات القديمة، سواء الزراعي ام في ((البناء الفوقي)) السياسي. اما البرجوازية الريفية الصغيرة، المتشابكة مع جماهير الفلاحين الذين يعيشون ((من عمل ايديهم))، فكان لابد لها ام تطمح الى تحولات برجوازية من نوع اخر، تاركة مكاناً اقل بكثير لبقايا القرون الوسطى على اختلاف اشكالها. وكان لابد للعمال الاجراء، بقدر ما كانوا يهتمون عن وعي بما يجري حولهم، من ان يرسموا لأنفسهم موقفاً واضح المعالم ازاء هذا الاصطدام بين هذين الاتجاهين المختلفين،

الذين كانا يحددان، رغم بقائهما في نطاق النظام البرجوازي، أشكالاً مختلفة إطلاقاً لهذا النظام، وسرعه مختلفة إطلاقاً لتطوره، ومدى مختلفاً لمفاعيله التقدمية. وهكذا، جاءت مرحلة السنوات الثلاث الأخيرة تضع في المرتبة الأولى من الماركسية المسائل التي درج على تسميتها بالمسائل التكتيكية، ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة بل من قبيل الضرورة. وليس ثمة من رأي أشد خطأً من الرأي القائل ان المناقشات والخلافات في وجهات النظر حول هذه القضايا كانت مناقشات ((مثقفين))، و((نضالاً في سبيل النفوذ على البروليتاريا التي ماتزال قليله الوعي)) و((تكييفاً من المثقفين على البروليتاريا))، كما تظن جماعه فيخي، واضرابها. بل بالعكس، فلان هذه الطبقة بلغت درجة النضج، فأنها لم تستطع ان تبقى عديمة الاحساس ازاء تصادم اتجاهين مختلفين يميزان كل التطور البرجوازي في روسيا، وكان لايد لمفكري هذه الطبقة بالضرورة من اعطاء تعريفات نظرية مناسبة (بصفه ملموسه ام غير ملموسه، بانعكاس مباشر ام غير مباشر) لهذين الاتجاهين المختلفين.

وخلال المرحلة الثانية، لم توضح مسألة التصادم بين الاتجاهين المختلفين للتطور البرجوازي في روسيا بوصفها مسألة الساعة، لان هذين الاتجاهين كليهما قد سحقتهما ((الجواميس البرية))، فتقهقرا، وانطويا على نفسيهما، وضعفا فتره من الزمن. ام الجواميس البرية المشبعة بروح القرون الوسطى لم تكن لتملا الصفوف الاولى من مسرح الحياة الاجتماعية وحسب، انما كانت تملأ ايضاً هو شعور جماعه فيخي. فلم يؤد ذلك الى التصادم بين طريقتين لتحويل القديم، انما ادى الى فقدان كل ثقة في أي تحويل كان والى بروز روح ((الخصوع)) و ((الندم)) والولع بالمذاهب الاجتماعية، وموضة الصوفية، وغير ذلك: وهذا ما بقي طافياً. وهذا التغيير الفريد السرعة لم يكن مجرد صدفة ولا مجرد نتيجة لضغط ((خارجي)). فأن المرحلة السابقة كانت قد حركت فئات السكان التي ظلت طوال اجيال وعصور في معزل عن القضايا السياسية وغريبه عن هذه القضايا، وحركتها عميقاً الى حد ان ((اعادة النظر بجميع القيم))، وبحث القضايا الاساسية من جديد، والاهتمام من جديد بالنظرية، بالألقباء، بدراسة الاصول الأولية، كل ذلك انبثق بصورة طبيعية محتومه. ام الملايين، التي استيقظت فجأة من سباتها الطويل وواجهت حالاً اهم القضايا، لم تستطع البقاء طويلاً في مستوى هذه القضايا. انها لم تستطع الاستغناء عن وقفه، عن عودة الى المسائل الاولى، عن استعداد جديد يتيح ((هضم)) الدروس الغنية بالعبء غنى لا سابق له، ويتيح لجماهير اوسع الى ما لا حد له، امكانية التقدم من جديد، بخطى تكون هذه المرة اشد ثباتاً، واوفر وعياً، واقرى اطمئناناً، واشد استقامة، الى حد كبير.

ان ديالكتيك تطور التاريخ قد ارتدى في المرحلة الاولى شكلاً وضعت معه في جدول الاعمال مسألة تحقيق تحويلات مباشرة في جميع ميادين الحياة في البلاد، كما ارتدى شكلاً في المرحلة الثانية وضعت معه مسألة صياغة التجربة المكتسبة، وحمل اوساطاً اوسع على استيعابها، وادخلها، إذا جاز التعبير، في باطن الارض، في الصفوف المتأخرة من مختلف الطبقات.

وبالضبط لان الماركسية ليست عقيدة جامده، ميتة، مذهباً منتهياً، جاهزاً، ثابتاً لا يتغير، بل مرشد حي للعمل، لهذا بالضبط كان لايد لها من ان تعكس التغيير الفريد السرعة في ظروف الحياة الاجتماعية. فقد ادى هذا التغيير الى تقسخ عميق، الى اللبلة، الى ترددات متنوعة، وبكلمة، الى ازمه داخلية خطيره في الماركسية. ولذا توضع من جديد في جدول الاعمال مهمه القيام بنضال شديد عنيد دفاعاً عن اسس الماركسية. ذلك ان اوسع الفئات من الطبقات التي لم تستطع اجتناب الماركسية، عند صياغة مهماتها، كانت قد استوعبت الماركسية في المرحلة السابقة بأكثر الاشكال تشويها وجوداً فقد حفظت هذه ((الشعارات)) او تلك، هذه الأجوبة او تلك على المسائل التكتيكية، دون ان تفهم المقاييس الماركسية لهذه الأجوبة. ان ((اعاده النظر بجميع القيم)) في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية ادت الى ((اعاده النظر)) بأعم الاسس الفلسفية للماركسية وأشدها تجرداً. وقد برز تأثير الفلسفة البرجوازية، بشتى انواعها المثالية، في وباء ((المناخية)) الذي انتشر بين صفوف الماركسيين. فأن ترديد ((شعارات)) محفوظة عن ظهر القلب، ولكن دون فهم ودون تأمل، ادى الى انتشار ضرب من التعابير الجوفاء على نطاق واسع، وهذه التعابير الجوفاء انتهت عملياً الى ميول برجوازية صغيره مناقضه للماركسية بصورة جذريه، مثل ((الاولتروفية))، المكشوفة او المستورة، او مثل وجهه النظر التي ترى في الاولتروفية ((مظهراً مشروعاً)) للماركسية.

ومن جهة اخرى، تبين ان ميول جماعه فيخي، وروح التخلي الذي استولى على اوسع فئات البرجوازية، قد تسربت ايضاً الى الميل الذي يريد ادخال النظرية الماركسية والتطبيق الماركسي في نطاق ((الاعتدال والنظام)) فلم يبق فيها من الماركسية سوى التعابير التي تغطي المحاكمات المشبعة تماماً بالروح الليبيرالي حول ((المراتب))، و((الزعامة))، الخ...

يقيناً ان تطاق هذا المقال لا يمكن له ان يتسع لبحث هذه المحاكمات، انما تكفي الإشارة اليها لكي نوضح ما قيل اعلاه عن عمق الازمه التي تجتازها الماركسية، وعن الصلة التي تربطها بكل الوضع الاجتماعي والاقتصادي في المرحلة الحاضرة. فليس بأمكننا ان ندير ظهورنا للمسائل التي تثيرها هذه الازمه. وليس ثمة ما هو اشد ضرراً ومخالفة لمبادئ من محاوله التهرب منها بالترثرة الفارغة وليس ثمة ما هو اهم من اتحاد جميع الماركسيين الذين يدركون عنق الازمه وضرورة مكافحتها دفاعاً عن الاسس النظرية للماركسية وعن مبادئها الأساسية التي تشوه من مختلف الجوانب بنشر التأثير البرجوازي بين مختلف ((رفاق الطريق)) الماركسية.

ان مرحله السنوات الثلاث السابقة قد اشركت عن وعي، في الحياة الاجتماعية، اوساطاً واسعاً ماتزال اليوم في معظم الاحيان تخطو حقاً الخطوات الاولى للاطلاع على الماركسية. وبهذا الصدد تولد الصحافة البرجوازية عدداً من الضلالات أكثر بكثير مما مضى وتنشرها على نطاق اوسع. ولذا كان فهم هذا التفسخ واسباب حتميته في الفترة التي نجتاز، والتجمع لمكافحته بحزم، المهمة التي يفرضها عصرنا على الماركسيين، بكل معنى الكلمة الدقيق والاولي.

جريدة ((زفيدا))، ال عدد2

23 كانون الاول (ديسمبر) 1910

المجلد 20، ص 84- 89

